مجلة التغير الاجتماعي *ISSN 2507-7473 المجلد الرابع العدد 02 (ديسمبر 2019) * ص61-86

أحمد أبوزيد وصياغة أنثروبولوجيا عربية محلية

هل يمكن أن يكون نموذج عربي؟

Ahmed Abu Zeid et la formulation de l'anthropologie arabe locale

Serait-ce un modèle arabe?

سليم سهلي •

1 جامعة العربي التبسي- تبسة ، salim.sahli@univ-tebessa.dz

مخبر التغير الاجتماعي والعلاقات العامة في الجزائر

الملخص:

-تأتي هذه الورقة البحثية وما تطرحه من قضايا وآراء لكي ترصد أهم المفكرين والانثروبولوجيين في الوطن العربي – احمد أبو زيد– وإسهامه في التأسيس للأنثروبولوجيا في الوطن العربي من خلال الدراسات الأنثروبولوجية ذو الصبغة الأمبريقية، والتطرق لأهم أفكاره، وأعماله والتي ساعدت في فك الرموز المشفرة التي كانت غير واضحة داخل المنظومة الفكرية في الجامعة العربية اتجاه الانثروبولوجيا .

ومن هذا المنطلق تأتي هذه الورقة لتحاول الإجابة على بعض التساؤلات ذات العلاقة بهذا الموضوع:

-في ماذا تتمثل أهم الإسهامات(النظرية والمنهجية) في الدراسات الأنثروبولوجية العربية؟

-ما هو الجديد الذي جاء به احمد ابو زيد في إطار دراسة المجتمعات المحلية.

الكلمات المفتاحية:الدراسات الأنثروبولوجية،الجانب النظري ، الجانب الميداني .

Abstract :

-Ce document de recherche et ce qu'elle présente des questions et des opinions venir pour surveiller les penseurs les plus importants et les anthropologues dans le monde arabes - Ahmed Abu Zaid - et sa contribution à la fondation de l'anthropologie dans le monde arabe à travers un colorant d'études anthropologiques empiriques، et adressée à la plus importante de ses idées et son travail qui a aidé à déchiffrer les codes chiffrés cela n'a pas été clair dans le système intellectuel dans le sens de l'anthropologie de la Ligue arabe.

De ce point de cet article est de tenter de répondre à certaines questions liées à ce sujet:

– Quelle est la plus importante contribution qui ont fondé l'anthropologie dans le monde arabe(méthodologies et théories)?

– Qu'as rapporté Ahmed Abu Zied dans dans le cadre de l'étude de communautés locales

***Keywords**: Les études anthropologiques، le côté théorique، le côté terrain.*

•**المؤلف المرسل:** سليم سهلي ، **الإيميل:** salim.sahli@univ-tebessa.dz

■ مقدمة:

"إنّ مجال الأنثروبولوجيا واسع سعة الحياة، ويشمل الكثير من مظاهر الحياة الفكرية باتّجاهاتها وتياراتها ومذاهبها العديدة، وهو الأمر الذي لم يفهمه الكثيرون من الأنثروبولوجيين في العالم العربي، ممّن ضاقت آفاق أفكارهم بحيث انحصرت في عدد من الموضوعات التقليدية، لا يكادون يخرجون عنها، دون أن يجدوا في أنفسهم الجرأة الكافية على ارتياد ميادين المعرفة المختلفة، المتنوّعة والمتباينة .. وقد يكون ذلك راجع إلى ضعف في الإعداد العلمي والتكوين الثقافي، وعدم إدراك مدى اتساع البحث .. ولكنّه يرجع – بلا شك – وفي المقام الأوّل، إلى قصور في ملكة التخيّل وإلى الخوف من الانطلاق والمبادرة". (اسلام العربي)

ومهما كان واقع الأنثروبولوجيا في العالم العربي، فقد اكتسبت أرضيّة جديدة منذ الستينات من القرن العشرين، حيث حظيت بتفهّم أفضل لإمكانيات استخدامها، لما يحقّق أهداف العالم العربي في التقدّم والازدهار. وقد تجلّى الاهتمام العربي بالأنثروبولوجيا، من خلال الاعتراف الرسمي بالانثروبولوجيا بالوطن العربي، و إزاحة الستار الاستعماري على هذا العلم، و هذا ما ركز عليه شيخ الأنثروبولوجيين احمد أبو زيد، الذي يعتبر رمز من الرموز الأساسية في الأنثروبولوجيا العربية، حيث أردا إخراجها من الرؤية الضيقة التي حاولت أن تحاصرها وتسجنها و تجعلها من الطابوهات في الوطن العرب وهذا عن طريق البحث و تقصي و بالأحرى العمل الميداني الذي يعتبره من أهم الميكانيزمات المهمة في الانثروبولوجيا، حيث تصبح الأخيرة لها مجال في الوطن العربي هو المجتمع المحلي ، الذي اعتبره ميدان خصب مليء بالمادة الاثنوغرافية.

"وهذا تحفيزاً على إيجاد أنثروبولوجيا عربية، تتّجه دراساتها نحو مشكلات المجتمع العربي المحلي، وتسهم في تقدّمه بما يتناسب مع معطيات العلوم الإنسانية المختلفة، لأنّ الجهل بهذه العلوم، ولا سيّما الأنثروبولوجيا، ما زال سائداً – إلى حدّ ما – ويعوّق الدراسات الجديّة والموضوعية لطبيعة الثقافات الأخرى وإسهاماته الإنسانية، التي تؤدّي بالتالي إلى فهم حقيقي لطبيعة المساهمة العربية في الثقافة الإنسانية، وحجم هذه المساهمة "(اسلام العربي).

ولهذا من الضروري فحص التراث العربي، بتنوعه وغزارته،ودراسته دراسة متعمقة ولاسيما أعمال الدكتور أحمد أبو زيد باعتباره هو من ادخل الانثروبولوجيا للوطن العربي واكتشاف تقنيات جديدة في الدراسات الانثروبولوجية.

أولا: المفاهيم النظرية التي برزت في دراسات احمد أبوزيد:

"يعتبر مفهوم "البناء الاجتماعي" من المفاهيم الأساسية في الدراسات الاجتماعية الحديثة بعامة والدراسات الأنثروبولوجية بخاصة. وقد ظهرت أهميته بعد إن اتجه كثير من علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا منذ أوائل هذا القرن إلى القيام بدراساتهم الحقلية FIELD STUDIES في المجتمعات صغيرة الحجم قليلة السكان نسبيا كوسيلة لفهم المجتمع الإنساني في عمومه" (أحمد أبو زيد، 2011، ص 19).

لقد أتاحت الدراسات الأنثروبولوجية للعديد من العلماء الفرصة لإدراك نوع الترابط بين مختلف الأنظمة الاجتماعية، في أي مجتمع، حيث تؤلف هذه الأنظمة نسيجا متماسكا ولا يمكن للباحث الأنثروبولوجي أن يهمش نسق من الأنساق الاجتماعية لأنها تؤثر وتتأثر، فلقد أولى احمد أبوزيد اهتماما كبيرا بمفهوم البناء الاجتماعي و الذي يعتبره مصطلح يعاني كثيرا من الإبهام و الغموض في الدراسات الأنثروبولوجية الغربية عموما و العربية خصوصا، إضافة للبناء الاجتماعي اهتم ابو زيد بمفهوم رؤى العالم ،فقد كان الاثنان محورين أساسيين وعلامتين مضيئتين على طريق مشواره العلمي. فقد ارتبط مفهوم البناء الاجتماعي أوثق ارتباط بالأستاذ المعلم، فمن كتاباته عرفنا بداية الاهتمام بهذا المفهوم، وأي نوع من المجتمعات هو الأنسب لتطبيقه، وما يمكن أن نستخلصه باستخدامنا له، "وفي مؤلفه «البناء الاجتماعي– المفهومات» أشار إلى أن ظهور الاهتمام بمفهوم البناء الاجتماعي بدأ منذ أوائل القرن العشرين وهو ما دعا علماء الأنثروبولوجيا إلى القيام بدراساتهم الحقلية في المجتمعات الصغيرة الحجم القليلة السكان نسبيًّا كوسيلة لفهم المجتمع الإنساني في عمومه". (أحمد أبوزيد، 2011، ص 20).

مجلة التغير الاجتماعي *ISSN 2507-7473* المجلد الرابع العـدد 02 (ديسمبر 2019) * ص61-86

"أما عن بداية اهتمام «أحمد أبو زيد» ذاته بالبنائية فترجع إلى الخمسينيات حين كان يدرس الدكتوراه في جامعة أكسفورد، وزادت صلته واهتمامه بالموضوع بعد أن جاء ليفي شتراوس عام 1955 إلى الجامعة نفسها، ثم تدعم هذا الاهتمام وتبلور حين قام بتدريس الأنثروبولوجيا البنائية بمفهومها البريطاني والفرنسي، وأتيح له إلقاء عدد من المحاضرات العامة، والمشاركة في بعض الندوات في مصر وعدد من البلاد العربية عن «البناء والبنائية»، وكتب فيها عدة مقالات عن المفكرين البنائيين الفرنسيين في مجلتي عالم الفكر، والعربي في الكويت. كما نشر له عدد من الدراسات العلمية المتخصصة حول بعض المفهومات المستخدمة في الكتابات البنائية"(فاروق أحمد مصطفى).

وهو ما يعكس بوضوح أنه اهتمام بدأ مع دراساته الأكاديمية العليا، واستمر حتى تخرجه، ثم قيامه بالتدريس – وهي مرحلة أراها حيوية ومهمة في التكوين العلمي لأي عالم – وكتابة المقالات لندوات كثيرة ألقاها في مصر، وفي عدد من المجتمعات العربية، وانتهاء بأبحاثه ومؤلفاته العلمية المتخصصة، فهي حلقات متصلة في سلسلة اهتمامه بهذا المفهوم. وبوقفة قصيرة عند إحدى هذه الحلقات وهي حلقة البحث العلمي، "كان أحمد أبوزيد شغوفًا به ومعتمدًا في كتاباته على المعلومات التي أتيح له جمعها من دراساته الحقلية في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا وبعض المجتمعات القبلية في إفريقيا جنوب الصحراء (أوغندا، وكينيا، وتنجانيقا، والسودان الجنوبي، ونيجيريا، وسيراليون). وهو ما يوضح حرصه على اختبار هذا المفهوم ليس في مصر وحدها بل في العديد من المجتمعات، فكثرت رحلاته العلمية الميدانية وأتاحت له رصيدًا هائلاً من الشواهد والوقائع الحية التي استخدم الكثير منها لشرح أفكاره وآرائه النظرية. فعلى سبيل المثال قدم شرحًا لفكرة البناء الاجتماعي بشواهد من دراساته للمجتمعات القبلية موضحًا كيف أن القبيلة «تؤلف وحدة اجتماعية وسياسية واقتصادية متكاملة، وهو ما يضطر الباحث الأنثروبولوجي إلى أن يقصر دراسته على قبيلة واحدة يحاول أن يحيط فيها بكل ملامح حياتها وكل نظمها وما يقوم بين هذه النظم من تساند وظيفي، وهذا في مجمله هو مضمون البناء الاجتماعي"(فاروق أحمد مصطفى).

ولعل القارئ للفقرات السابقة يقف متسائلاً أكان الأستاذ المعلم مهتمًا بالمفهوم، أم بالدراسة الحقلية، وتأتي الإجابة بأنه يرى: أن الباحث الأنثروبولوجي الجاد لا يكتفي بالمناقشات النظرية أو بالدراسات الحقلية أو الميدانية التي لا تستند إلى نظريات محددة واضحة المعالم، بل يحاول المزاوجة بين الاثنين بقصد الوصول إلى تحقيق دقيق وفهم عميق للمجتمع الذي يدرسه.

ومع إيمان أحمد أبوزيد بأهمية الدراسات البنائية الوظيفية طوال مشواره العلمي، فإنه مؤمن أيضًا بأن طبيعة موضوع الدراسة تفرض على الباحث المدخل النظري الملائم، فالمهم هنا هو تحقيق الهدف الأعلى والأسمى وهو فهم الواقع حتى لو تغيرت وتنوعت المداخل النظرية المهمة لأي بحث علمي، يؤكد ذلك رؤيته لمفهوم «رؤى العالم» الذي رآه "يساعد على الغوص إلى أعماق وأغوار لم تفلح المفهومات التقليدية مثل مفهوم البناء الاجتماعي والوظيفة الاجتماعية في الوصول إليها. فبحوث رؤى العالم ترتكز على (الفهم) وليس على الرصد أو الوصف. فهي تغوص وراء الظواهر الاجتماعية والأنشطة الثقافية المشاهدة بقصد الكشف عن أنماط التفكير والمبادئ العقلية التي تكمن وراء هذه الظواهر والأنشطة. فليس المهم هو (ما يلاحظه) الباحث الأنثروبولوجي أثناء الدراسة الميدانية عن سلوك الناس وتصرفاتهم على ما هو عليه الشأن في البحوث الإثنوجرافية المألوفة التي تهتم بدراسة البناء الاجتماعي بكل علاقاته ونظمه وأنساقه المختلفة؛ وإنما المهم هو (ما يراه) الشخص أو الذات موضوع البحث عن نفسه وعن غيره، أو عما عداه من أشخاص وكائنات وأشياء وظواهر وقوى مختلفة"(أحمدابوزيد، 2011، ص31).

وعلى الرغم من اختلاف أساليب الدراسة تبعًا لاختلاف المفاهيم أو المداخل النظرية، إلا أن أحمد أبوزيد قد رأى ما بينهما من أوجه اتفاق، فرؤى العالم تتفق مع البنائية الوظيفية. «في النظرة الكلية الشاملة إلى الأشياء والأفكار، بل أن رؤى العالم تعد مفهومًا أنثرولوبوجيا أصيلاً، فكل الدراسات حول رؤى العالم هي دراسات أنثروبولوجية تعتمد على مناهج البحث الأنثروبولوجي وأساليبه وتقاليده التي تتطلب الإقامة الطويلة في المجتمع موضوع الدراسة، والاتصال الوثيق القائم على خلق علاقات حميمة مع الشخص أو الأشخاص المراد الوصول إلى أنماط تفكيرهم وقيمهم..

مجلة التغير الاجتماعي *ISSN 2507-7473* المجلد الرابع العدد 02 (ديسمبر 2019) * ص61-86

وذلك باستخدام مناهج وأساليب وطرق وأدوات بحثية خاصة تتلاءم وطبيعة الموضوع» وهو ما يكشف عن الحس الأنثروبولوجي الأصيل، والحرص على التطوير النظري مع المحافظة على الأسس المنهجية للعلم سواء بنفس أساليبه وطرائقه وأدواته، أو من خلال تطويرها(أحمد أبوزيد، 2011، ص 42).

1- النظري والميداني بين التداخل والفصل في الدراسات الانثروبولوجية:

في أدبيات البحث الأنثروبولوجي، يثار الالتباس أحيانا حول طبيعة العلاقة بين التأمل النظري والمعايشة الميدانية، خاصة مع اعتبار كل منهما مكونا بحثيا مستقلا عن الآخر، فيما أكد احمد ابوزيد على تداخلها وتلاحمها،" انطلاقا من أن ممارسة العمل الميداني في هذا البحث يجب أن يكون مسلحة بالمعرفة النظرية، وبالتالي يؤكد الأنثروبولوجي أبوزيد على تلاحم الجانب النظري بالجانب الميداني، فالمعايشة الميدانية لها ارتباط بالإطار التصوري والإعداد البيبليوغرافي واختبار مجتمع البحث وجمع البيانات المدونة عنه، حتى يكون الباحث قادرا على استيعاب ما يلقاه من ظواهر وملاحظات على نحو أغنى وأعمق مما تقدمه الأساليب الأخرى كالمسوح الاجتماعية والتوثيق المكتبي، بالنظر إلى إمكانات العمل الميداني غير في استخدام أساليب المتعارف عليها في دستور الانثروبولوجيا هي الملاحظة بالمشاركة والمقابلة ودليل العمل الميداني والتصور الفوتوغرافي والتسجيل الصوتي والفيلم الاثنوغرافي، ذلك انه ومن البداية، رفض ابوزيد هيئة الانتروبولوحي النظري المحض والمعتمد على الأفكار التطورية أو على الانتشارية، كشخص منذور لإعادة تشكيل البشرية ورسم مساراتها، مفضلا المستكشف الميداني والمرتحل في كل المواسم، آزره في ذلك، معاينة الميدان وجعله مخبر أبحاثه وتجاربه."(ديفيد إل سيلز، 2010، ص 11).

مجلة التغير الاجتماعي *ISSN 2507-7473* المجلد الرابع العـدد 02 (ديسمبر 2019) * ص61-86

ثانيا: قضايا منهجية في الدراسات الأنثروبولوجية

1- الأنثروبولوجيا بين التيار الكلاسيكي والتيار الحداثي:

"تلخص تجربة أحمد أبوزيد في العلم الذي كرس له كل مسيرته العلمية الزاخرة، والمثمرة فكره، كونه قد تعلم وعلم الأنثروبولوجيا على أصولها، وبصورتها الكلاسيكية مع إدراكه التام لتطور هذا العلم، وإدخال بعض التعديلات والتغييرات عليه. فهو يرى أن الأنثروبولوجيا، ليست مجرد علم من العلوم الاجتماعية أو الإنسانية لها مجال محدد لا تتعداه، وإنما هي «منهج» أو موقف نظري وعملي يمكن أتباعه وتطبيقه على مختلف مجالات الفكر والنشاط الإنساني. وأنه حتى مع تطور مجالات البحث، وتغير طبيعة المجتمعات التي تهتم الأنثروبولوجيا بدراستها من المجتمعات البدائية – في بدايات هذا العلم – إلى المجتمعات الحديثة فإن ذلك لم يغير من مناهج وأساليب البحث، وإن كان هذا لا ينفي حدوث بعض الإضافات والتعديلات التي لم تغير من جوهر هذه المناهج أو الخصائص المميزة لتلك الأساليب».(أحمد أبوزيد، 2010، ص 156).

وفي دراسته للمجتمعات الصحراوية في مصر في أواخر الثمانينيات من القرن العشرين أبرز أحمد أبوزيد اختلاف المنهج الأنثروبولوجي الذي استخدمه في هذه الدراسة عما كان مستخدمًا في الأنثروبولوجيا التقليدية، وكانت أهم نقاط الاختلاف:(أحمد أبوزيد، 2010، ص 161).

– الاهتمام بالبعد التاريخي لمجتمع البحث من أجل فهم أعمق وأدق للحياة الاجتماعية والثقافية، لان الوعاء التاريخي للمجتمع

يسهل على الباحث الأنثروبولوجي فهم ثقافتهم وذهنيتهم.

– الخروج من إطار المجتمعات المحلية الصغيرة المنعزلة إلى ما وراء الحدود الجغرافية للمجتمع المحلي.

– الخروج من إطار بحث الباحث الواحد الفرد لمجتمع صغير على مدار فترة زمنية هي سنة غالبًا إلى البحث الذي يعتمد على

فريق من الباحثين يمكن أن يبحثوا مجتمعا أكبر، وأكثر تعقيدًا مع إمكانية اختصار الفترة الزمنية للبحث.

على خلاف ما كانت عليه البحوث التقليدية من عزوف عن الاتصال بالهيئات والمؤسسات الحكومية خوفًا من التأثر بآرائهم، حرص هو وفريقه على الاتصال بمختلف الإدارات والأجهزة الرسمية وهو ما ساعد في الحصول على البيانات الرسمية التي تساعد على اكتمال الصورة أمام الباحث.

"ومع تفضيل الأستاذ أحمد أبو زيد إدخال ما يراه من تعديلات على المنهج الأنثروبولوجي، وهو ما حرص عليه عبر مشواره العلمي، فإن إيمانه العميق بأهمية هذا المنهج حتى في صورته التقليدية والذي كشفت عنه أبحاثه ودراساته الأنثروبولوجية القيمة التي زخرت بخبراته، وملاحظاته، وتعليماته التي تعد درسًا يدرس لكل أنثروبولوجي ومهتم بدراسة الحياة الاجتماعية والثقافية، يدفعنا إلى أن نقف وقفة نتعرف خلالها على بعض إسهاماته في هذا المجال فقد نبه إلى أهمية الرجوع إلى الوثائق، والإحصاءات الرسمية المتاحة، وضرورة قراءة التاريخ والأدبيات عن موضوع الدراسة، وعدم الاكتفاء بجمع المعلومات المتعلقة بالموضوع وتصنيف هذه المعلومات، ثم عرضها ببساطة وبطريق مباشر، وإنما تحليل هذه المعلومات وتفسيرها في ضوء نظرية من النظريات التي يزخر بها تاريخ الفكر الأنثروبولوجي أو علم الاجتماع. وهو ما يوضح أن التزام الباحث بالنظرية العلمية كان شغله الشاغل فهو ليس كبعض الأنثروبولوجيين الذين قد يستغرقهم الاهتمام بالدراسات الميدانية دون اهتمام بإطار نظري وإنما كان يؤكد على أهمية هذا الإطار في كل مرحلة وإجراء من إجراءات البحث، بدءًا من اختيار موضوع البحث ومشكلته، ومجتمع الدراسة، مرورًا بالأدوات المستخدمة كالملاحظة بالمشاركة أو غيرها، وانتهاء بكتابة نتائج البحث بمستوى من التجريد. ولعل ذلك يتضح في قوله موجهًا حديثه للباحث «ليس للوقائع والأحداث أي معنى أو أهمية في حد ذاتها، وإنما هي تكتسب معناها الاجتماعي حين توضع في ضوء نظرية عامة مما يتطلب إخضاع المعلومات لنوع من الاختبار يتلاءم مع تلك النظرية. والمحك الأخير الذي يتحكم في تحديد

وتعيين ما يذكره الباحث في دراسته هو مدى تماشيها واتفاقها مع الاتجاه العام للدراسة، ومدى نفعها في تفهم المشكلة التي أثارتها هذه المعلومات ذاتها في ذهن الباحث». وفي حديثه عن أهمية الملاحظة بالمشاركة أكد أهمية التفاعل المستمر بين المواقف النظرية، والبحث الميداني والمعلومات الإثنوجرافية، وفي اختياره للمجتمعات المحلية التي تمثل أنماطًا اجتماعية وثقافية داخل إطارها الثقافي العام نبه إلى أهمية أن يضع الباحث في الخلفية (الإطار النظري) الموجه للدراسة، فإذا كان يهتم باختبار قضايا نظرية التغير راعى في اختياره لمجتمع الدراسة أن يكون قد شهد بعض التغيرات." (فاروق أحمد مصطفى).

ولعل العبارات السابقة تشير بوضوح – إلى جانب ما توضحه من أهمية الالتزام بإطار نظري في كل مراحل البحث – إلى أهمية «الاختيار» فالبحث الأنثروبولوجي هو سلسلة من الاختيارات التي تصدر عن التفضيل بين مختلف الإمكانات والبدائل بدءًا من اختيار نمط المجتمع المراد دراسته، واختيار المنهج والأساليب، واختيار المدخل النظري، حيث تخضع الاختيارات لمعايير موضوعية، وذاتية في الوقت نفسه. وتتضح الموضوعية والذاتية في مختلف إجراءات البحث فاختيار طريقة البحث وأدواته على سبيل المثال يخضع لاعتبارات تتعلق بطبيعة مجتمع الدراسة، والموضوعات المراد دراستها، والهدف من الدراسة كما يتأثر ذلك في الوقت نفسه ببعض العوامل الذاتية مثل الإعداد العلمي للباحث، ومجال تخصصه، وخبراته وميوله وتفضيلا ته.

2- احمد أبو زيد وتقنيات جديدة في الدراسات الأنثروبولوجية:

البديهي أن تتولد عبر هذه التجارب الميدانية تقنيات جديدة، استطاع أبوزيد أن يطورها في العمل الميداني، وهي تقنيات تجلت مراميها فيما يتعلق باختيار مجتمع البحث أو الباحثين أو العينة أو مستلزمات الإقامة والدراسة فقبل أبوزيد كان مجال البحث الأنثروبولوجي يقتصر، في العادة على دراسة مجموعات صغيرة و قليلة من الجماعات، لكنه استطاع أن يتحرر من التقيد بحرفية هذا النهج التقليدي، حين أولى اهتمامه بدراسة المجتمعات الأكبر حجما والأكثر تعقيدا في

مجلة التغير الاجتماعي * ISSN 2507-7473 * المجلد الرابع العدد 02 (ديسمبر 2019) * ص61-86

الإطار الحرص على استيضاح علاقتها المتبادلة مع المجتمع العام، وهو ما يتضح في دراسته للمجتمعات الصحراوية.

"ومع اتساع اهتمامات الانثروبولوجيا، وتزايد الحاجة إلى مقاربة مجتمعات محلية تمثل الأنماط المجتمعية الرئيسية في المجتمع، لجأ أبوزيد إلى تعديل مشروع الباحث الفرد إلي يقوم وحده لمدة طويلة من الزمن، وتم ذلك لأول مرة أثناء دراسته الميدانية في الصحراء الغربية بين عامي 1965- 1966، وتطور بعد ذلك في بحث شمال سيناء، حيث بلغ فريق العمل 23 باحثا، فيما تعلق الأمر لديه بان تعدد الباحثين الميدانيين، لا يؤدي إلى أي خلل في الدراسة الانثروبولوجية، ما دام أنهم يتولون جمع المعلومات من خلال دليل عملي محدد" (فاروق أحمد مصطفى).

وثمة إضافة أخرى قدمها أبو زيد فيما يخص عينة البحث الانثروبولوجي، حيث الأسلوب الغالب اعتمد اختيارها بطريقة عشوائية، لكن أبو زيد عدل هذا الأسلوب إلى الاختيار المتعمد، فيما تطلب الأمر شروطا معينة في المبحوثين الرئيسين أو الإخباريين، ممن يقيم معهم علاقات وثيقة، دون أن يمنعه ذلك بطبيعة الحال من التواصل مع أكبر عدد ممكن من أعضاء المجتمع المبحوث.

ولأن المشكلة الرئيسية التي تواجه الباحث الميداني، تتمثل في التغلب على الحواجز التي تحول بينه وبين فهم القيم والمعاني المحلية، والتي قد تختلف اختلافا جذريا عما يحمله الباحث من قيم ومعاني، دأب ابوزيد على تنبيه الباحثين إلى خطورة فرضهم لقيمهم الخاصة، وإصدارهم للأحكام المسبقة والأخيرة تعتبر اكبر خطر على البحث الانثروبولوجي، حيث نوه ابو زيد على ضرورة امتلاكهم بصيرة الاحترام العميق لثقافة مبحثيهم، وفي نفس الوقت لا يمكن على الباحث الانثروبولوجي أن ينغمس في ثقافة المجتمع المدروس.

وفي مجال تطوير أدوات الجمع الميداني، أبدع أبوزيد في تقنين أدلة العمل الميداني، كمرشد للباحثين في جمع البيانات، مع إعطائهم الحرية في عدم التقيد الحرفي بما ورد في الدليل أو ترتيبه

بنفس الكيفية، لكن وجب على الباحث الانثروبولوجي أن يتعامل مع المعلومة الاثنوغرافية تعاملا إنسانيا.

من بحوث ودراسات العالم الكبير تجدر الإشارة إلى أهم أدوات الجمع الميداني التي حرص على استخدامها في أبحاثه وهي:

أ – المسح الاجتماعي

أدرك أحمد أبوزيد بوضوح جدوى المسوح للبحث الأنثروبولوجي، فما تسفر عنه هذه الدراسات المسحية من بيانات هو بمنزلة ركيزة لبحوث أكثر تحديدًا وعمقًا. وربما نبع ذلك من حرصه الشديد منذ البداية على فهم واقع البناء الاجتماعي والثقافي المدروس، إلى جانب إمكانية الاستفادة من نتائج الدراسة لأغراض عملية وتطبيقية في مقدمتها إفادة القائمين على التخطيط والتنمية، وتقييم المشروعات التنموية وإنجاحها، خاصة وقد كان أحد أهدافه هو معرفة «ودراسة اتجاهات الأهالي ومواقفهم ونظراتهم إلى نمط الحياة التقليدية وظروف المعيشة التي يحيونها ومدى تقبلهم أو تمردهم عليها وعدم رضاهم بها أو عنها.

إذا كانت الدراسات الانثروبولوجية التقليدية تتطلب اختيار معينا للمجتمعات المدروسة من حيث صغر الحجم والتجانس والانعزال، حتى يتمكن الباحث الفرد من الاندماج في المجتمع المدروس والمشاركة بالمعايشة والملاحظة..... نجد انه بقدراته ورؤيته قد حقق نقلة نوعية في مجال الانثروبولوجيا حيث اتجه الى دراسة مجتمعات أكبر وأوسع وأكثر تعقيدا"(ناهد صالح وآخرون، 2002، ص 131).

ب – دليل العمل الميداني

هو أداة بديلة للاستبيان في البحوث السوسيولوجية هدفها تنظيم الجمع الميداني، وقد وصفه أبوزيد بأنه «يضم مجموعة من النقاط العامة التي تمثل أهم التساؤلات التي يدور حولها البحث، مع مراعاة عدم الدخول في التفاصيل الدقيقة التي قد تضع قيودًا على حرية الباحث و(الشخص) الإخباري على السواء وتمنعها بذلك من التطرق إلى مختلف جوانب المشكلة أو المشاكل المطروحة

مجلة التغير الاجتماعي *ISSN 2507-7473* المجلد الرابع العدد 02 (ديسمبر 2019) * ص61-86

للنقاش أثناء أي لقاء من هذه اللقاءات». وهي أداة استخدمها في أبحاثه الميدانية، وأبرز أهميتها في بحثه عن رؤى العالم، حيث صدر دليل مفصل للعمل الميداني في إصدار للمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية.

"قد أبدع احمد أبو زيد في إنشاء دليل العمل الميداني بعد تحديد الإطار النظري ورسم خطة البحث وأسلوب العمل إلى جانب تدريب الباحثين، مع الاعتماد طيلة الوقت على الملاحظة بالمشاركة والمعايشة والتواصل الدائم والإقامة
المستمرة لفريق البحث في المجتمعات المدروسة"(ناهد صالح وآخرون، 2002، ص 132).

ج – الملاحظة بالمشاركة – المباشرة-

هي من الأدوات التي ارتبطت بالمنهج الأنثروبولوجي بل إن لها فضلا، تميز هذا المنهج من خلالها. وقد حظيت الملاحظة بالمشاركة باهتمام أحمد أبوزيد البالغ فرآها «هي الأساس الذي تقوم عليه بقية طرق البحث الأنثروبولوجي للوصول إلى درجة أكبر من التعمق في البحث وفي الفهم. وهي المرجع الأخير للتأكد من صحة البيانات التي يحصل عليها الباحث من الوسائل الأخرى، وهي التي تمكن الباحث من الوصول إلى صورة كلية عن مجتمع بحثه، وتوحي إليه بتساؤلات جديدة». ونظرًا لممارسته لهذه الأداة، وحرصه على ممارسة تلاميذه لها فقد حدد المقصود بها، وشروطها، وإمكانية تطبيقها فهي ليست عملية سهلة أو بسيطة، وإنما تحتاج إلى مران وتدريب، فالمقصود بها «الاندماج الكامل في حياة المجتمع»، وهو ما يتطلب مرور فترة من الزمن تكفي لتقبل المجتمع وجود الباحث. وهو ما يسمح للباحث بالمشاركة في الحياة العامة، وفي الأنشطة الاجتماعية اليومية، وتكمن أهمية الاندماج في أنه يساعد الباحث على فهم العادات وأنماط السلوك السائدة في المجتمع. وإن كانت له خطورته إذا وصل إلى حد التوحد مع المجتمع واعتناق مواقفه ووجهة نظره للأشياء، وبالتالي فقدان الموضوعية في البحث.

كما أدرك تفاوت قدرات الباحثين على الاندماج بين اندماج كلي، ومراقبة من بعيد، وتفاوتهم أيضًا في القدرة على تذكر الأحداث والمواقف والتفاصيل. لذا يحرص البعض على التسجيل في الميدان، أو بعد العودة، وأيا كان فالمهم هو تسجيل التفاصيل الدقيقة لما لها من أهمية.

د – الإخباريون:

إلى جانب الاهتمام الكبير بالملاحظة بمستوياتها، وبالملاحظة بالمشاركة على وجه الخصوص، أكد أبوزيد عدم الاستغناء عن المقابلة، والإخباريين كأدوات رئيسية للحصول على بيانات تتعلق بأوضاع اجتماعية يصعب إخضاعها للملاحظة المباشرة. وأولى اهتمامًا خاصًا بالإخباري، وأهم شروط اختياره، وأهمية الرجوع إلى أكثر من إخباري واحد، موضحًا تفاوت القدرات بين الإخباريين. فعن شروط الإخباري الجيد أشار إلى اختيار من لديه المعرفة بشئون المجتمع، والقدرة على الإدلاء بالمعلومات بدقة، وأن يكون موضع ثقة، ثم أضاف في بحثه لرؤى العالم شروطًا أخرى ومعايير موضوعية على الباحث تطبيقها في اختياره للأشخاص (أو الإخباريين) هي ألا يختارهم إلا بعد طول معرفة بالمجتمع المحلي بكل نظمه وأنساقه الاجتماعية وأعضائه، ثم يراعي في اختيار الشخص الإخباري أن يكون جيدًا ومتجاوبًا مع الباحث، أي أن تكون لديه الرغبة- والقدرة على- الحديث والتعبير عن ذاته وعن وجهة نظره. وقد يتطلب ذلك توافر درجة معينة من سعة الخيال والقدرات الإبداعية لدى ذلك الشخص أكثر من الإحاطة بأنماط السلوك والنظم والعادات، مع تفضيل الاعتماد على أكثر من إخباري يرجع الباحث إليهم على فترات متباعدة، وفي مواقف مختلفة. أما في ما يتعلق بتفاوت قدرات الإخباريين، فأهمها تفاوت القدرة على التذكر، وسعة الأفق، وتنوع التجارب، وعمق الفهم للأوضاع الاجتماعية.

بطبيعة الحال أن نجاحالدراسة الميدانية يتوقف إلى حد بعيد على حسن اختيار الإخباريين والتعاون معهم، فهم يمثلون حلقة الاتصال بين الباحث والمجتمع طوال فترة الدراسة ويعرف جريك بايلي الإخباريون بالقول: «إن الأشخاص الذين يسمحون له بالقيام بملاحظة سلوكياتهم يسمون الخبراء والإخباريين» (عبد الله عبد الغني غانم، 2004، ص 103).

مجلة التغير الاجتماعي *ISSN 2507-7473* المجلد الرابع العدد 02 (ديسمبر 2019) * ص61-86

إذن من بين الأساسيات في البحث الأنثروبولوجي حسب أحمد أبو زيد يتمثل في استخدام إخباريين رئيسيين كمصدر للمعلومات الإثنوغرافية، فالناس يختلفون فيما بينهم في معرفتهم، وتفسيراتهم لنظمهم الاجتماعية والثقافية، كما يختلف الناس في اهتماماتهم وقدراتهم على التعبير اللغوي، وبالتالي لا يجد الأنثروبولوجي إلا عددًا قليلا من الأفراد يصلحون كإخباريين ملائمين، إن البعض من القدرات الإخباري يكتشفها الباحث ذاته أثناء تدريب على تصوير المعلومات الثقافية في الإطار المرجعي الذي يستخدمه الأنثروبولوجي.

من التقاليد الأنثروبولوجية أن يعتبر الباحث أن كل ما يدلي به الإخباري من بيانات أمورا خاصة به، فلا يستخدمها كوسيلة لتشجيع إخباري آخر على التحدث بما عنده، وإذا طلب الإخباري في بعض الحالات التي يذكر فيها بعض المسائل الشخصية، إلا يتخذها الباحث مادة للنشر فعليه أن يحترم رغبته، وفي ميثاق مبادئ المسئولية المهنية الذي نشرته الجمعية الانثروبولوجية الأمريكية عام 1981 ورد هذا النص " من حق الإخباريين أن تغفل أسماؤهم، وأن يحترم الباحث هذا الحق سواء وعد به صراحة أو لم يعد....."(فتيحة محمد إبراهيم، د.س، ص 188).

هـ – الأدوات السمعية والبصرية

أكد الأستاذ العالم أهمية أدوات أنثروبولوجية أخرى، وإن رأى أن استخدامها يحتاج إلى أعمال ومجالات بحثية خاصة. وفي مقدمة هذه الأدوات، الأدوات السمعية والبصرية فقد رأى أن الصور من أهم الأدوات ليس فقط كوسيلة للتوضيح، ولكن كأداة فعالة وسهلة وبسيطة لتلخيص المواقف المعقدة في (لقطة) واحدة سريعة قد يحتاج شرحها وتحليلها لملء عشرات الصفحات.

وكان من رأيه أن الصورة تقرأ كالنص المكتوب وإن احتاجت إلى خبرة ويقظة ومران. وأشار إلى أن التصوير قد أصبح يؤلف فرعًا جديدًا هو الأنثروبولوجيا البصرية أو المرئية، له مؤلفاته

وأساتذته، ودورياته المتخصصة. وفيما يتعلق بالتسجيل الصوتي فرأى أنه يرتبط باعتبارات أخلاقية ترتبط بضرورة الحصول على موافقة المبحوثين، وهي أداة تتيح الفرصة للتحليل اللغوي الدلالي.

"إن استخدام آلة التسجيل واسع الانتشار لدرجة أنه قد يخلق وهم الكفاءة، ولكن لكي تكون التسجيلات منتجة، يتوجب اتخاذ بعض الاحتياطات، مثل استخدام السماعة الخارجية وشرائط التسجيل جديدة وجيدة النوعية، والانتباه جيدًا إلى الوضع الصوتي للمكان الذي يتم التسجيل فيه، تجدر الإشارة أيضًا أن التسجيل والتدوين المنهجيين للمستندات الشفهية يمكن أن يضخها البحث الميداني لدرجة تشله، يجدر إذن، بعد انتهاء التسجيل أو الحديث الاستماع فورًا إلى مضمونه مع تسجيل الملاحظات الأساسية، مثلما نفعل أثناء الاستماع إلى محاضرة، وإلى عدم التدوين الحرفي إلا للمقاطع الجديرة بالاهتمام الخاص، أو التي يجب الاستشهاد بها في الرسالة أو البحث أو الدراسة»(فيليب لابورتتولرا، جان بيار فارنييه، 2004، ص 382).

وفي ختام الحديث عن الإجراءات المنهجية نرى أهمية تناول أحد الموضوعات المنهجية المهمة التي تحسب لأحمد أبوزيد في تطبيقاته للمنهج الأنثروبولوجي وأدواته، وهو اعتماده في معظم دراساته على فريق للجمع الميداني، فقد استخدمه في دراسة أجريت في الصحراء الغربية المصرية عامي 1966/1965، وفي بحثه القيم في المجتمعات الصحراوية المصرية في نهاية الثمانينيات وهو ما يمكن أن نتخذه هنا مثالاً يحتذى، ودرسًا منهجيًّا من دروس العالم الباحث، كما استخدمه في بحث رؤى العالم وغيره من أبحاث. ففي بحث المجتمعات الصحراوية المصرية تم الاعتماد على فريق مكون من ثلاثة وعشرين باحثًا وباحثة منهم خمسة عشر باحثًا وباحثة في الأنثروبولوجيا، وسبعة باحثين وباحثات في علم الاجتماع، وباحث واحد في علم النفس، ومشرف متخصص في الأنثروبولوجيا، أي أنه اعتمد على أعضاء متعددي التخصصات. واشترك الفريق كله كوحدة متكاملة في جمع المادة العلمية التي تعطي خلفية عامة وأساسية عن مجتمع الدراسة، وفي نفس الوقت انقسم الفريق إلى ثلاث مجموعات اهتمت كل واحدة بدراسة نمط اجتماعي واقتصادي واحد (نمط صيد، ورعي

مجلة التغير الاجتماعي *ISSN 2507-7473* المجلد الرابع العدد 02 (ديسمبر 2019) * ص61-86

وزراعة، وبداوة)، حيث اهتم كل باحث بأحد الأنساق الاجتماعية أو الثقافية دون إغفال لبقية الأنساق وهو ما يؤكد حديثه عن ضرورة أن يظل الإطار أو المدخل النظري في خلفية الباحثين، فهم هنا يدرسون كل نسق فى علاقته ببقية الأنساق في المجتمع المحلي نفسه، وفي ضوء مكونات البناء الاجتماعي والثقافي ككل.

ورأى أبوزيد في هذا البحث القيم، وفي غيره من البحوث أن العمل في فريق يحتاج إلى العمل وفقًا لجدول زمني، وإلى تقسيم للعمل، وتنسيق بين المهام المختلفة، والتوفيق بين متطلبات أساسية ومتكاملة تبدأ من الالتزام بإطار نظري، وخطة بحثية، وأدوات وتنتهي بأهمية أن يترك للباحث أو الجامع مساحة كافية من الحرية والإبداع فهو ليس مجرد آلية للجمع الميداني.

ومن قبل ذلك ومن بعد فإن الاعتماد على فريق بحثي يتطلب التزام المشرف بعدد من القيم يتحلى بها، ويقوم بنشرها وبثها بين أعضاء الفريق، وحتى يمكننا التعرف على بعض هذه القيم سوف أعتمد هنا على بعض شهادات تلاميذه الذين عملوا معه ضمن فريقه البحثي، فقد أكدوا أن الأستاذ كان يقوم بدور الأب لأعضاء فريقه ولأسرهم أيضًا فيطمئن الأهل، ويصاحب الباحثين، ويوفر لهم الإمكانات الضرورية، ويبث فيهم روح العزيمة، وحب الوصول إلى الحقيقة، وحب المغامرة، وارتياد الصعاب في سبيل إنجاز العمل على أكمل وجه. وعلى الجانب الآخر كان يحثهم ويعطيهم نموذجًا في الالتزام بقيم وأخلاقيات البحث العلمي في تعاملهم مع مفردات مجتمعات الدراسة من حيث تكتم أسرارهم وعدم إفشاء ما ائتمنوا عليه، مع تشجيع

الباحثين على احترام عادات وتقاليد مجتمع الدراسة في كل تفاصيل الحياة اليومية.

مجلة التغير الاجتماعي *ISSN 2507-7473* المجلد الرابع العدد 02 (ديسمبر 2019) * ص61-86

ثالثا: الانثروبولوجيا السلاح الأفضل لفهم المجتمع المحلي:

عند قراءة العنوان يتبادر إلى أذهانكم أن الانثروبولوجيا هي وسيلة استعمارية لفهم ثقافة المجتمعات المحلية، حيث تم استخدامها لوسائل غير شرعية من خلال توظيف المادة الاثنوغرافية في إدارة تلك المستعمرات ومن هنا ارتبط هذا العلم بالاستعمار.

"والحقيقة انه لا يوجد علم استعماري وآخر غير استعماري، وان هناك علما شريرا وآخر طيبا، فالعلم علم: منهج ومعلومات، والمشكلة دائما في كيفية استخدام نتائج هذا العلم. ونحن عندما ندرس المجتمعات التي ننتمي إليها فنحن ندرسها بهدفي فهمها والاسترشاد بما نحصل عليه من معلومات في التخطيط للتنمية، والارتقاء بتلك المجتمعات. فكان للأنثروبولوجيا جانبان: الجانب الأكاديمي والجانب التطبيقي. الأول تلخصه في جمع المعلومات وتسجيلها قبل أن تتغير تلك المجتمعات، وإن هذه المادة التي نجمعها ليس للجانب الأكاديمي فقط، وإنما لكي نسخرها ونطوعها في خدمة المجتمعات..... نفهمها كي نرتقي بها."

"وحينما درست المجتمعات الصحراوية في جنوب سيناء كان الهدف الأساسي هو كيفية الارتقاء بالإنسان الذي تستهدفه خطط التنمية، وكيف تسخر المعلومات في الارتقاء بمجتمعه في كل المجالات."

إذا يتعين على دارس أي مجتمع محلي أن يبدأ بأن يحدد لنفسه إطار المجتمع المحلي الذي يتصدى لدراسته والبحث فيه وجمع المادة الميدانية فيه. ولذلك يحسن أن نتفق على مجتمع المحلى أولا.

"المجتمع المحلي في الاستخدام السوسيولوجي والأنثروبولوجي الشائع يشير إلى جماعة من الأفراد الذين تجمع بينهم روابط عديدة متنوعة، ويشتركون في قدر من المصالح والاهتمامات. وهو يشير كذلك إلى ارتباط تلك الجماعة بحيز مكاني محدد ومحدود كالبلدة الصغيرة، أو جزء من المدينة – الحي -. وبذلك ينطوي المفهوم كما يستخدمه المتخصصون في العلوم الاجتماعية على فكرة المعية – أي العيش معا و السعي نحو تحقيق استمرار الحياة -، والشعور بالانتماء، والاستمرار في الوجود داخل نطاق جغرافي محلي معين. كما يتضمن المفهوم مجموعة من العلاقات بين الأفراد الذين يكونون

هذه الجماعة الكبيرة، وهي علاقات تحكمها قواعد ومبادئ معينة."(محمد الجوهري، عليا شكري، 2008، ص 209).

ويعرف المجتمع المحلي أيضا "..... هو المكان الذي نعيش ونتعارف فيه، ومنه يعترف بنا الآخرون، وهو بالبداهة القرية أو البلدة، الدوار مراعيه، الحي ومبانيه وفضاءاته للتبادل والمواجهة."(محمد الجوهري، عليا شكري، 2008، ص 203).

- البداوة كموضوع رئيسي للأنثروبولوجيا المحلية في الوطن العربي:

"يتميز العلم العربي بوجود نمط ايكولوجي وسكاني و اجتماعيو ثقافي فريد،و هو المجتمع الصحراوي البدوي مما فتح أمام الانثروبولوجيين العرب مجالا جديدا لم تهتم به الانثروبولوجيا الغربية إلا في مرحلة متأخرة نسبيا. وقد اتجه عدد كبير من الباحثين العرب في مختلف البلاد العربية إلى دراسة القبائل البدوية مما ترتب عليه ظهور ما يمكن تسميته بالأنثروبولوجيا البدوية أسوة بالأنثروبولوجيا الحضرية مثلا التي عرفتها الأنثروبولوجيا في الغرب. ومع أن هناك بحوثا ميدانية أجراها بعض الأنثروبولوجيين الغربيين في الصحاري العربية فإن الانثروبولوجيا البدوية كمجال متميز نشأت نشأة عربية تكاد تكزن خالصة،وقد يمكن رد هذه الجهود إلى الأربعينيات من القرن العشرين وشاركت فيها في الأصل جامعة الإسكندرية ثم الجامعة الأمريكية في القاهرة في الخمسينيات إلى جانب عدد من الأنثروبولوجيين السودانيين والأردنيين."(حازمالبيلاوي،وآخرون، 2007، ص 430).

إن اهتمام العالم الأنثروبولوجي الجليل أحمد أبوزيد بالبداوة في الوطن العربي والمجتمعات الصحراوية اهتمامًا كبيرًا تمثل في كثير من البحوث الميدانية التي طبق فيها الفكر الأنثروبولوجي في دراسة المجتمعات البسيطة وتأتي معها المجتمعات البدوية معتمدًا على دراسة ميدانية متخصصة، فضلاً عن فكر نظري متعمق بالإضافة إلى قراءات أدبية وعلمية كثيرة.

من أهم هذه الدراسات والبحوث التي قام بها أحمد أبو زيد: (أسماء الرويلي)

- الواحات الخارجة (مصر) ثلاثة عشر شهرًا في عامي 1954 و1955.

- جماعات البدو الرحل في الصحراء الغربية (مصر) والصحراء السورية صيف العام 1959 بتكليف من مكتب العمل الدولي.
- القيام بعدد من الدراسات الميدانية في صحاري الشرق الأوسط وشمال إفريقيا (المغرب – الجزائر – ليبيا – الأردن – العراق – المملكة العربية السعودية – إيران) بتكليف من مكتب العمل الدولي بجنيف العام 1961، ونُشر البحث بالإنجليزية عن طريق الهيئة الدولية وفوتس في مؤتمر العام 1962.
- بحث المجتمعات الصحراوية في مصر بتكليف من المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية وقد صدر حول ذلك البحث أربعة مجلدات بالعربية والإنجليزية تدور كلها حول شمال سيناء.
- بحث عن «الواحات البحرية» بتكليف من المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ولم يسبق دراسة هذه الواحات من قبل بإتباع المناهج والأساليب والطرق الأنثروبولوجية.

كما تناول أحمد أبوزيد الصراع بين البداوة والحضارة في قصة «قابيل وهابيل» بمقال نشر في مجلة معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة.

إن شغف وحب أحمد أبوزيد بالبداوة وبالمجتمعات الصحراوية تجلى في دراسته «قصة الصحراء» التي نشرها كدراسة مستفيضة توضح مدى حب وشغف الأستاذ المبدع بمقالات ودراسات نشرت بمجلة عالم الفكر (المجلد السابع عشر العدد الثالث صفحات 3–28).

ولا نستطيع في هذا العنصر ذكر كل التفاصيل عن هذه الدراسات والبحوث والمقالات، ولكننا سنتطرق إلى نموذج واحد البداوة العربية في المجتمعات الصحراوية بمصر.

لقد بلغ حب أحمد أبوزيد للصحراء والانبهار بها في العالم العربي مبلغًا كبيرًا، فهي أساس البداوة العربية، فبدأ بالإشارة الى بعض المستكشفين المشهورين الذين جابوا الصحراء العربية

مجلة التغير الاجتماعي *ISSN 2507-7473* المجلد الرابع العدد 02 (ديسمبر 2019) * ص61-86

الكبرى مثل تيودور مونو Theodore Mono في كتابه عن «الهجانة Meharées» وأهداه إلى الجمل والماعز الدابة والوعاء اللذين أمكن بفضلها تذليل الصحراء وكان ذلك في العام 1937، وبعد عشرين سنة أصدر جان لارتجي Jean Lartegy كتابه عن «الصحراء سنة واحدة» وأهداه إلى سيارة الجيب وطائرة الداكوتا اللتين أيقظتا الصحراء بعد نومها الطويل وغيرتا أسلوب حياتها ولا يقتصر هذا على الصحراء الكبرى وحدها أو «صحراء الجزائر» التي اهتم بها معظم الكتاب الفرنسيين وإنما يصدق على الصحاري كلها بوجه عام، فالجمل والماعز كانا يؤلفان أهم وسيلة للنقل والانتقال ويوفران الطعام والغذاء الذي كان يتم حمله في «وعاء» من جلد الماعز، واستطاع البدوي القديم أن يعتمد عليها خلال قرون طويلة. وفي التغذي وحفظ الحياة وفي اكتشاف كثير من مجاهلها إلى الوضع الحالي الذي يعيش فيه الإنسان الحديث بكل ما أحرزه وحققه من تقدم علمي وتكنولوجي، واستطاع الإنسان بالسيارة والطائرة غزو الصحراء من جديد وغير بذلك من أسلوب حياتها التقليدي. وبفضل الطائرة استطاع كثير من الرحالة والمكتشفين والعلماء والباحثين والعسكريين وغيرهم التوغل في الصحراء واكتشفوا الأركيولوجيا أو علم الآثار وكثيرا من اللوحات والرسوم والنقوش الملونة، واستمرت الكشوف في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي، وفتحت الصحراء أسرارها أمام البعثات الأركيولوجية في نقل اللوحات واستنساخها أساليب وطرق حديثة ومتطورة، أمكن عن طريقها نقل الأعمال الفخمة مثل صور الزراف ووحيد القرن والأفيال وغيرها. كما اكتشفوا أن هذه الرسوم واللوحات والنقوش تعكس تأثيرات خارجية مدونة مثل المصرية القديمة، والأشورية وبعض العناصر من كريت، وبعض التأثيرات الزنجية. (أحمد أبوزيد،2002، ص 54).

ويحدد أحمد أبوزيد أن الاهتمام بالصحراء لم يقتصر على علماء الأركيولوجيا أو المهتمين بفنون الإنسان المبكر في عصور ما قبل التاريخ، وإنما امتد هذا الاهتمام إلى أعداد كثيرة من المشتغلين بتخصصات ومهن مختلفة وقد تركوا وراءهم ثروة هائلة من الكتابات المتنوعة التي تتراوح بين العمق والجدية والتخصص وبين الطرافة والسرد ولكنها كلها تنبع من حب الصحراء والانبهار بها ولا يدرك ذلك إلا من عاش حياة الصحراء على الأقل كباحث أو دارس أو رحالة، حيث يرى نموذجًا خاصًا

من البيئة الطبيعية، ونمطًا متميزًا من الحياة وأشكالاً مختلفة من النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ولونًا خاصًا من الثقافة بكل ما يميزها من قيم ومبادئ وأحكام ومنجزات فنية وأدبية وفكرية، كانت كلها من أهم الأسباب التي جعلت عددًا من الباحثين في الدراسات الإنسانية والعلوم الإنسانية الصحراوية وحياة البدو يتركون ذخيرة هائلة من الكتابات والصور والأفلام التي تضم قدرًا كبيرًا من المعلومات حول كثير من ملامح الحياة المختلفة في الصحراء. وتغطي الصحاري والمناطق القاحلة حوالي ثلث الأرض، ومن أهم مقومات الصحراء هو ذلك الخلاء الواسع المترامي العجيب من معظم مظاهر الحياة النباتية والحيوانية، إلى جانب ندرة المياه وارتفاع الحرارة الذي يؤدي إلى تبخر جزء كبير مما يسقط عليها من أمطار متفرقة فضلاً عن عدم انتظام سقوطها، ومن ثم عدم التنبؤ بالمطر أو الاعتماد عليه كمصدر ثابت للمياه. (أحمد أبوزيد، 2002، ص 56).

وتنتج القحولة التي تسود المناطق الصحراوية عن ندرة المطر وارتفاع الحرارة وعوامل التبخر لذا من الخطأ أن نرد «ظاهرة التصحر» أو وجود الصحاري إلى عامل واحد فقط، ولكن بالإضافة إلى هذه العوامل الطبيعية لابد أن نأخذ في الاعتبار العامل البشري الذي يتمثل في إساءة الإفادة من الغطاء النباتي الأخضر سواء عن طريق استنزاف خصوبة الأرض والمبالغة في الرعي مما يؤدي إلى تعرية الأرض أو إساءة استعمال الماء المتاح وعدم استغلاله في الزراعة.

رابعا: تجارب ميدانية في وقت أزمة معرفية:

مبكرا أدرك أحمد أبوزيد ما يحظى به العمل الميداني في البحث الأنثروبولوجي من أهمية، اقترنت لديه بالنزول إلى الحقل الواقعي للمادة، وجمعها عن طريق معايشة الجماعة المدروسة على مدى فترة زمنية كافية، قصد التعرف على أنشطتها ومقاصد أفعالها.

على امتداد عقود ستة، أرسى ابوزيد قواعد الدرس الأنثروبولوجي على أسس صلبة من عمل ميداني متعمق، تميز بوضوح المردود العيني للفكرة في الواقع، وتواتر كخلاصة مقطرة لجهده الخلاق، سواء في دراساته التي شملت مناطق مختلفة في مصر والشرق الأوسط وشمال إفريقيا،

أو عبر تواصل عمله الميداني مع مراكز بحثية عديدة، او في إشرافه على فرق بحثية عديدة، وقد مارس ابوزيد العمل الميداني في مؤسسات مصرية وأجنبية – جامعة الإسكندرية، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، الجامعة الأمريكية، في القاهرة.....الخ- وكانت البداية عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية، حين سجل دراسته لنيل الماجستير في جامعة الإسكندرية، عن "الموت والشعائر الجنائزية عند المسلمين في مصر، واستعان في إنجازها بدليل ميداني، بعدها قدم بحثا ميدانيا لجامعة أكسفورد عن الواحات الخارجية في مصر، مثل موضوع رسالته الدكتوراه ، واستغرق 13 شهر بين عامي 1954 – 1955 ، وفي عام 1958 تولى الإشراف على بحث عن الثأر في إحدى قرى الصعيد المصرية، بتكليف من المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، ثم عن جماعة البدو الرحل في الصحراء الغربية بمصر و الصحراء السورية صيف عام 1959، وخارج مصر تولى ابوزيد القيام بدراسات ميدانية ذات أهداف محددة، ابتغت على إمكانات التنمية وتقييم مشروعاتها، وشملت المناطق الصحراوية في الشرق الأوسط و شمال إفريقيا في عام 1961". (أسماء الرويلي).

خامسا: أخلاقيات بحثية

وجنب هذه التقنيات وفي أهدابها، أسهم ابوزيد في إثارة وعي الباحثين بأهمية وخطورة بعض الظواهر والأنماط السلوكية، المرتبطة بأخلاقيات ممارسة البحث الميداني وفهم الظروف التي صاحبت ظهور وانتشار الأنماط والممارسات السالبة منها، وأوصى في هذا الإطار بصيغة قواعد أخلاقية، تتلاءم مع المجتمع العربي، وتتفق مع مسئوليات باحثيه.

ولم يغفل في هذا الصدد الإشارة إلى المشكلات المتعلقة بهذه الأخلاقيات، وخصوصا ما يتعلق بحقوق الباحث بالنسبة لاتخاذ القرارات الخاصة بإجراءات البحث الميداني، إضافة إلى توجيه سلوكه بما يتفق مع تقاليد المجتمع وقيمه، والحق في الاحتفاظ بخصوصية الحياة الشخصية وزادا على ذلك،بأن حدد ابو زيد المسئوليات الملقاة على الباحث وهي مسئولية تمتد إلى إعداده العلمي منذ البداية، ومرورا بتمسكه بالقواعد المنهجية الإثنوغرافية الجزئية والتفصيلية،

بالإضافة إلى ضرورة احترامه لثقافة وقيم المجتمع محل الدراسة، وإقامة علاقات طيبة مع أعضاء هذا المجتمع، والالتزام بسرية معلومات خاصة بالمبحوث ليست للنشر. وبالنسبة لمسئوليات المشرف، فقد أكد على منع المادة الاثنوغرافية التي يتم الحصول عليها ميدانيا عن أي منطقة محلية، من أن تتداولها مؤسسات بحثية أجنبية، وبلغ من الحرص أبو زيد على معايشة فريق بحثه، أنه كان يقيم معهم في مجتمعات البحث، ويشاركهم في أوجه نشاطهم اليومي، ويعقد اجتماعات يومية لهم، لمناقشة ما توصل إليه كل عضو، وقراءة المادة الميدانية التي قاموا بجمعها، ودراسة العقبات والصعوبات التي اعترضت طريق جمع المادة، وإمكانية التغلب عليها. (أسماء الرويلي).

ويتضح ذلك على سبيل المثال، في مرافقته لأعضاء فترة ممتدة وسط الوديان وجوار الجبال التي كان يسبق فيها الفريق إلى مواقع العمل، أو في إقامته معهم بمسكن بدوي تأتي إليه المياه أسبوعيا أثناء بحث المجتمعات الصحراوية، أو حين أقام معهم في حي "ستوتة" بمدينة طنطا، أو في منزل ريفي بقرية تواج القريبة من هذه المدينة أثناء بحث رؤى العالم.

ويذكر من شاركوه العمل الميداني، ذلك الجهد الذي كان يبذله لتأمين إقامة فريق البحث، وبخاصة الباحثات، ممن كان عليهن الإقامة في الميدان بعيدا عن أسرهن لفترات طويلة، فكان يقوم بدور الأب من حيث إجراء اتصالات تلفونية وطمأنة الأهل، ومراعاة الظروف الصحية الخاصة بهن وتوزيعهن على تجمعات سكنية تتوافر فيها الإمكانات اللازمة. (أسماء الرويلي).

الأمر هنا يتعلق بأن التجربة الميدانية في الدرس الأنثروبولوجي العربي المعاصر تحمل توقيع رائدها احمد ابو زيد، بما يوجب علينا الإنصات دوما إلى سننه، تلك التي ما برحت ملحة في أيامنا، كما كانت عليه دائما.

مجلة التغير الاجتماعي *ISSN 2507-7473* المجلد الرابع العدد 02 (ديسمبر 2019) * ص61-86

■ الخاتمة:

يعتبر أحمد ابو زيد من أهم الأنساق الانثربولوجية في الوطن العربي، حيث أعطى دفعة نوعية للانثروبولجيا في الوطن العربي من خلال التراث المعرفي و الدراسات التي قام بها في العديد من المناطق العربية، و أيضا من خلال رحلاته الفكرية لكي يبحث عن أفاق جديدة لتنير البحث الأنثروبولوجي في الوطن العربي، حيث كانت حصيلة أبحاثه موضوع بحثي جديد و تقنيات جديدة في الدراسات الانثروبولوجية،حيث أثرى المكتبة العربية – الانثروبولوجية – بالعديد من الاوعية المعرفية و عشرات المقالات الموزعة في الدوريات.

وأخيراً، يجب أن يدرس الإرث العربي، باعتباره موضوعاً للمعرفة الأنثروبولوجية، وأنّه تراث متعدّد الأوجه، يرتبط ترسيخ الأخلاق في النفوس، وبتلاؤم الناس أو معارضتهم، وبإنتاج معارف مناسبة.

إنّ من بين مهام الأنثروبولوجيين العرب إذن، في الوقت الحاضر، ألاّ تقتصر جهودهم على إبراز النسق الغربي على العربي، أو جمع المادة الأثنوجرافية، وإنّما لا بدّ أن تتضمّن دراساتهم أيضاً، الفحص الدقيق للمجتمعات المحلية بهدف فهم ثقافته لتطوير وازدهار المجتمع،وهذا ما ركز عليه الدكتور أحمد ابو زيد في معظم مؤلفاته حيث نادى بالاستقلالية بين النسق الغربي والنسق العربي من خلال إنشاء موضوع للأنثروبولوجيا هو المجتمع المحلي.

مجلة التغير الاجتماعي *ISSN 2507-7473* المجلد الرابع العـدد 02 (ديسمبر 2019) * ص61-86

■ قائمة المراجع:

1- أبوزيد أحمد، الطريق الى المعرفة، مجلة العربي، العدد 46، الكويت 2002.

2- أبوزيد أحمد، البناء الاجتماعي -مدخل لدراسة المجتمع-، دار المعرفة الجامعية طبع نشر توزيع، ج1، الإسكندرية، مصر، 2011.

3- أبوزيد أحمد، مستقبليات، وزارة الإعلام مجلة العربي، الكويت، ط1، 2010.

4- إل.سيلز ديفيد، الموسوعة الدولية للعلوم الاجتماعية – علماء الانثروبولوجيا-، ترجمة مجموعة من الباحثين، مراجعة و تحقيق أحمد ابو زيد، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2010.

5- البيلاوي حازم و آخرون، حصاد القرن – المنجزات العلمية و الإنسانية في القرن العشرين-،المؤسسة العربية للدراسات و النشر،ط1، بيروت لبنان،2007.

6- الجوهري محمد، علياء شكري، مقدمة في دراسة الانثروبولوجيا،د.د.ن، القاهرة، 2008.

7- الرويلي أسماء، حوار شيق وقيم مع الانثروبولوجي د أحمد ابو زيد،http://www.aranthropos.com/ ، تم معاينته يوم السبت، 2017/01/22. على الساعة 15:32.

8- صالح ناهد وآخرون، بحوث في الانثروبولوجيا العربية، مركز البحوث و الدراسات الاجتماعية، جامعة القاهرة، 2002.

9- عبد الله عبد الغني غانم: طرق البحث الأنثروبولوجي، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ط1، 2004.

10-العربي اسلام، ابو زيد و الأنثروبولوجيا العربية،www.biolgist.com، تم معاينته يوم الاربعاء 2017/01/23، على الساعة 16:52.

11-فتيحة محمد إبراهيم،و آخرون، مناهج البحث في علم الانسان – الانثروبولوجيا-، دار المريخ للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، د.س.

12- فيليب لابورتتولرا، جان بيار فارنييه: إثنولوجياأنتروبولوجيا، ترجمة: مصباح الصمد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 2004.

13- مصطفى فاروق أحمد، أحمد ابو زيد والبداوة في الوطن العربي، موقع http://www.aranthropos.com، تم معاينته يوم الثلاثاء 2017/01/13، على الساعة 14.12.